إيمـان الأبـــرص
مر ١ : ٤٠-٤٥

الأب
ريمون الهاشم
دكتور في
العلوم الدينيّة

مقدّمة

يندرج اختيارنا لنصّ مر ١: ٤٠-٤٥ «إيمان الأبرص وشفائه على يد يسوع المسيح» الذي خصّصته الكنيسة من أجل التأمّل بموضوع الإيمان ومفاعيله في حياة المؤمنين المسيحيّين الذين هم بحاجةٍ دائمةٍ للسعي إلى ترسيخ مفاهيم كتابيّة مجرّدة عن تفاسير قد تكون حرّفت علاقتنا مع الوحي الإلهيّ وأهدافه.

سنحاول بقدر المستطاع دراسة النصّ من خلال تحديده ووضعه في إطاره الأدبيّ وتقسيمه وشرحه واستخراج بعض الأفكار انطلاقًا من مقاربة بعض علماء الكتاب المقدّس لهذا النصّ وقراءتنا الذاتيّة له.

١ . الإطار الأدبيّ القريب والبعيد لـ مر ١: ٤٠-٤٥ وتحديده

يبدو لنا من القراءة الأولى للنصّ أنّ مر ١: ٤٠-٤٥ يشكّل وحدةً أدبيّةً قائمةً بحدّ ذاتها نوعًا ما بسبب التضمين (Inclusion) المرتكز على تكرار الفعل «أتى» في آ ٤٠ وآ ٤٥ أي في المقدّمة والخاتمة.

ويرى بعض شرّاح الكتاب المقدّس أنّ مر ١: ٤٠-٤٥ كوحدة قائمة بذاتها هي فقرة انتقاليّة تصل ١: ٢١-٣٩ بـ ٢: ١ - ٣: ٦، وتشكّل بذلك مقدّمةً لـ ٢: ١ - ٣: ٦، فهي على عكس الوحدات الأربعة التي تؤلّف ١: ٢١-٣٩ تبدأ دون تحديد أيّ إطار زمنيّ أو مكانيّ،

وتشير إلى الشريعة الموسويّة (١: ٤٤)، المسألة الركن في ٢: ١ - ٣: ٦. ، ولكنّ هذه النقطة الأخيرة غير مقنعة لأنّ آ ٤٤ تعطي صورةً عن يسوع كملتزمٍ بالشريعة في حين أنّ ٢: ١ - ٣: ٦ تُظهره متّهمًا بخرقها. كما أنّه توجد عدّة روابطٍ أدبيّةٍ وموضوعيّة بين ١: ٤٠-٤٥ والوحدات السابقة (١: ٢١-٣٩) ، ولا سيّما مع ١: ٣٥-٣٩ . أمّا الروابط الأدبيّة فهي: انتشار البشارة (١: ٣٩، ٤٥)، وانسحاب يسوع إلى القفر (١: ٣٥، ٤٥ج)، وبحث الناس عنه (١: ٣٧ب، ٤٥د)، وأمّا الموضوعُ الرابط والأساسيّ فهو السرّ المسيحانيّ (١: ٢٥، ٣٤ج د، ٤٣، ٤٤أ)، وهذا الموضوع يعاكس مجرى الأحداث اللاحقة في ٢: ١ - ٣: ٦، ممّا يجعل آ ٢: ١ مطلعًا جديدًا مع تحديدٍ زمنيّ ومكانيّ، وتبقى مر ١: ٤٠-٤٥ وحدةً أدبيّةً قائمة بذاتها ضمن القسم (١: ٢١-٤٥) المؤلّفِ من خمسة وحدات أدبيّة.

يرتكز مر ١: ٢١-٤٥ على سرد معجزات طرد الأرواح والشفاءات، وهذه المعجزات تتمّ مع نغمة متصاعدة ذات طابع مسيحانيّ تصِل إلى ذروتها في ١: ٤٠-٤٥، كما هي الحال أيضًا في (٤: ٣٥ - ٥: ٤٣)، و(٦: ٣٠ - ٧: ٣٧) و(٨: ١-٢٦)، وهنالك نقطة أخرى تصل أيضًا إلى ذروةٍ في هذه الفقرة في آ ٤٥د، وهي تسارُع الناس في أفواج إلى يسوع (١ : ٢٨، ٣٢، ٣٧).

٢ . تقسيم النصّ مر ١: ٤٠-٤٥

بنى الإنجيليّ نصّه حول شخصيّتين رئيسيّتين هما يسوع والأبـرص في حوارٍ على مرحلتين وما نتج عنهما:

المرحلة الأولى: آ ٤٠-٤٢

أ (آ ٤٠) يأتي أبرص نحو (يسوع)
ب يسترحمه: عناء القلب يُعبّر عنه (من الداخل) — ويخرّ على ركبتيه (الوضع الجسديّ): وضع عبادة - استسلام - قائلاً: العبارة.
ج «إن شئت فأنت قادر أن تطهّرني»
ب' (آ ٤١) تتحرّك أحشاؤه: تحنّن القلب (من الداخل) - ويمدّ يده (الوضع الجسديّ): القرب - التحنّن - لامسًا إيّاه قائلاً له:
ج' «قد شئت فكن طاهرًا»
أ' (آ ٤٢) وفي الحال ذهب البرص عنه بعيدًا وصار طاهرًا

المرحلة الثانية: آ ٤٣-٤٥ب

أ (آ ٤٣) فصرفه يسوع بعد ما أنذره بلهجة شديدة (الأمر بالانصراف)
ب (آ ٤٤) فقال له: «إيّاك أن تخبر أحدًا بشيء، (الأمر بالسكوت)
ج بل إذهب إلى الكاهن فأَرِه نفسك، ثمّ قرّب عن برئك ما أمر به موسى، شهادة لديهم» (يسوع الملتزم بالشريعة والمطيع لها)
أ' (آ ٤٥) أمّا هو، فانصرف (أطاعه وانصرف)
ب' وأخذ ينادي بأعلى صوته ويذيع الخبر، (عصى أمر السكوت)

النتيجة (تبادل الأدوار) آ ٤٥ج

أ فصار يسوع لا يستطيع أن يدخل مدينة علانيّة، (يسوع لا يستطيع أن يأتي باتّجاه الناس)
ب بل كان يقيم في ظاهرها في أماكن مقفرة، (المسيح صار كالأبرص يقيم في القفر)
أ' والناس يأتونه من كلّ مكان. (الناس يستطيعون أن يأتوا باتجاهه (وهذه حالة لاتشبه حالة الأبرص)

شرح نصّ مر ١: ٤٠-٤٥

كان مرض البرص حالةً مكروهةً ومخيفة، أسوأ بكثير من الحالات المرضيّة الاعتياديّة لأنّ الإنسان الأبرص كان يعتبر نجسًا لا مريضًا فحسب، وكان شفاؤه مستحيلاً، يرغمه وضعه على الانفصال عن عائلته وجماعته وهو أشبه بوضع المائت. أشار ريتشارد توماس فرانس إلى أنّه في العهد القديم كان الله وحده قادرًا على شفاء البرَص (خر ٤: ٦-٨ ؛ عد ١٢: ٩-١٥ ؛ ٢ مل ٥: ١-٢٧)، وهذا الشفاء كان يوازي القيامة من الموت (٢ مل ٥: ٧)، كما أنّ شفاء البرص وإقامة الموتى كانا علامةً على اقتراب الملكوت[1]؛ من جهة أخرى لم يكن يحقّ للأبرص الشافي أن ينضمّ إلى الجماعة قبل صدور شهادةٍ قضائيّة بالشفاء (لا ١٤: ١-٣٢)

بصرف النظر عمّا إذا كان مرقس يتوخّى من الشفاء برهانًا إيجابيًّا أمام الكهنة، أم شهادةً سلبيّة تجاههم، فهذه العجيبة شكّلت إعلانًا بحلول مطبّب جديد، وقادر في وسطهم. وكانت سلطة هؤلاء الكهنة محدودةً بتأكيد أم بنفي الأعجوبة، وكانتِ الضمانة لكشف النقاب عن الشفاء وعدم ابقائه سرًّا.

وقد تبادرت إلى ذهن علماء الكتاب المقدّس تفاسير عديدة حول نقاط الاستفهام التي تُطالعنا في هذا النصّ: جرأة الأبرص في خرق النُظم الاجتماعيّة وقضاء الشريعة في مجيئه صوب الأصحّاء لطلب الشفاء، وقراءة المشاعر القويّة التي خالجت نفس يسوع وانعكاسها على تصرّفاته، والأمر بالسكوت، وعدم انصياع الأبرص للنهي عن الكلام، وخرق يسوع لعُرف الطهر الذي يقضي بتجنّب النجسين بحسب الشريعة، وسنوردُ بشكل سريع بعض الحلول التي قدّمها الدارسون للنقاط التي ذكرنا.

تعامل وِلْيَامْ رَيْدْ مع القصّة على أساس أنّها واقعيّة مع أنّه كان رافضًا لتاريخيّتها فصنّفها مع عجائب أخرى وجمعها تحت عنوان المحظورات واعتبرها أمثلةً على محاولات يسوع لإخفاء هويّته وعمله، ثمّ أشار رَيْدْ إلى التناقض الحاصل بين السرّيّة والكشف، متسائلاً عن دقّة مرقس في وصف أفعال يسوع[2].

1 Richard Thomas FRANCE, The Gospel of Mark: A Commentary on the Greek Text, *The New International Greek Testament Commentary*. Grand Rapids: Eerdmans, 2002.

2 William WREDE, *the Messianic Secret in Mark*, London: James Clarke, 1971.

أمّا هايْكِيكي رايْزنَانْ فقد ركّز مجهوده على تحديد الخطوط العريضة للتقليد بدَل أن يلقي الضوء على المسعى الخلّاق والكتابيّ المرقسيّ، وعلى الرغم من عجزه عن إظهار الشكل الأدبيّ لـ مر ١: ٤٠-٤٥ وتاريخ كتابته بدقّة، فقد حدّد نقطة الارتكاز بمعالجته لبنية النصّ معتمدًا لا على الشفاء، ولا على النهي عن الكلام، ولا على شعور يسوع، بل على عصيان الأبرص لأمر السكوت وشعبيّة يسوع الناتجة عن هذا الإعلان[٣].

تجدر الإشارة إلى أنّ نموذج علم الاجتماع يدلّ على أنّ الفرد قد يوسَم بعمله أو بخاصّيّة ما؛ فإذا اعتَبَر إنسان شخصًا ما كاهنًا، وتوقّع منه أن يمارس وظيفة الكاهن، فهو بذلك يلقي عليه سِمة الكاهن؛ من هنا فإنّ طلب الأبرص للشفاء تضمّن جانبًا من عمل الكاهن المُتعارف عليه وهو إعلان شفاء أبرص، بمعنى آخر لقد طلب الأبرص من يسوع أن يقوم بعمل الكاهن. أشار مرقس إلى أنّ البرص قد زال، ونال المريض الشفاء، وبذلك يكون يسوع قد تمّم واجباته ككاهن وكشافٍ، ثمّ أمر الرجل باستحضار إعلانٍ رسميّ بالشفاء لدى أحد الكهنة (مر ١: ٤٢)، وبتقريب تقدمته بحسب ما أمر موسى ممّا يعني أنّه قد برِئ من مرضه وتطهّر.

أمّا جايْمسْ برُوكسْ فقد رأى بأنّ مرقس قد هيّأ الخبر في هذه المرحلة ركيزةً للخلاف الذي سيقع لاحقًا مع الكهنة في أورشليم، وهذه التهيئة للخلاف هي الأولى في سلسلة الوحدات الأدبيّة الأربعة التي ستتبع في تصويرِ تصاعد التوتّر بين يسوعَ والفرّيسيّين والذي ستكون خاتمته تآمر الفرّيسيّين مع الهيرودوسيّين (٣: ٦) لتدمير يسوع[٤].

ثمّ تساءل بعض الباحثين عن الاستعمال المرقسيّ للمفردات التي تُعبّر عن قوّة مشاعر يسوع؛ ففي آ ٤١، حيث قيل أنّ يسوع «أشفق»، وفي ترجمات أخرى قيل «تحنّن» - وهي ترجمةٌ لـ σπλαγχνισθεὶς [٥] - تعبيرٌ عن حالةٍ عميقةٍ من التأثّر تختلج في قلب الإنسان. لا يرِد هذا الفعل في صيغته سوى في اليونانيّة البيبليّة، وفي جذوره نجد كلمة σπλάγχνα، أي الأحشاء، مركز القلب الذي منه تنبع الشفقة ويتدفّق الحنان. هذه

3 Heikki RAISANEN, "The Messianic Secret in Mark's Gospel", p.132-40 in the *Messianic Secret*, Issues in Religion and Theology 1. Edited by Christopher TUCKETT; Philadelphia: Fortress, 1983.

4 James BROOKS A., *Mysterious Revelation: An Examination of the Philosophy of St. Mark's Gospel*. Ithaca: Cornell University, 1963.

5 Participe aoriste de σπλαγχνίζομαὶ

الصيغة تذكّرنا بسفر اللاويّين حيث أنّ القلب هو أيضًا مصدر الإرادة والتصميم، ولكنّ هذا الرابط يأخذنا إلى أبعد من ذلك في العهد القديم، إلى تذكّر رحمة الله وحنانه، وإلى ما يدعو نفسه به فهو «رحيم»، والكلمة مشتقّة من «رِحِمْ»، أي الصدر الأموميّ فإذا كان يسوع «أُخذ في أحشائه»، فذلك لأنّه يفيض بذلك الحنان الإلهيّ الذي يحمله في داخله.

هنالك بعض المخطوطات القديمة التي تستعمل كلمة οργισθεις (غضب حادّ) عوضًا عن كلمة εμβριμησάμενος (انتهره) في آ ٤٣أ، ممّا أبرز مشكلةً بالنسبة للشرّاح؛ وبما أنّ متّى ولوقا حذفا الآية، فقد عمدا على ما يبدو إلى ترطيب ملاحظة يسوع. إنّ كلمة οργισθεις تعني «غضب غضبًا حادًّا» وقد أُبدلت في أغلب الظن توخّيًا للتوفيق بين الأناجيل الإزائيّة حيث الآية في الأصل محذوفة في لوقا ومتّى كما أشرنا، وتوخّيًا أيضًا لإضفاء المثاليّة على صورة يسوع وحذف أي نمط تعبيريّ يصبُغه بالصرامة. ولكن هذه المحاولة التوفيقيّة بين الإزائيّين والمرطبة لوجه يسوع تسلب مرقس مقصده في التذكير بخصوصيّة هامّة أيضًا في العهد القديم وهي غضب الربّ، كعلامة على اقتراب الملكوت. إنّه غضب إلهيّ يعبّر عنه يسوع ضدّ المرض، أو ضدّ الشرائع التي تهمّش الإنسان وترذله في قارعة الطريق بعيدًا عن الحَضن البشريّ. وتأتي آ ٤٣ فتتوافق مع فكرة الغضب هذه بتعبيرٍ عن القساوة والتحذير في الكلام وذلك باستعمال كلمة εμβριμησάμενο، أي «انتهره»؛ ثمّ في الآية ذاتها يصرفه يسوع، وكلمة εξεβαλεν في آ ٤٣ب هي عينها التي استعملها يسوع ليطرد الأرواح النجسة. هذه القراءة تستنتج بأنّ الربّ يشدّد على أمر الأبرص بالسكوت بحسب الطابع المنهجيّ في مرقس المعروف بالسرّ المسيحانيّ، أي أنّ الإنجيليّ ركّز على أنّ يسوع كان يحمي هويّته لسببين أوّلاً كي لا يضعها الناس ضمن قالبٍ مصبوغٍ ومحدودٍ بالقدرات العجائبيّة، وثانيًا حتّى لا يعزُله الناس حتّى ولو وقتيًا لعلمهم بأنّه قد لامس الأبرص، فيؤخّر بذلك مشروع كرازته[6].

أمّا نحن فنسأل: كثيرون هم المرضى والمُعَوَزّين في أيّام يسوع الذين صادفهم في تجواله، فما الذي استوقفه في حالة الأبرص هذه؟ كان مرض البرص آفّة متفشّية وسريعة العدوى تضع المريض في عزلة عن المجتمع الذي يرفضه وينبذه؛ هذا الأبرص الذي سمع كلام يسوع، الذي قيل في الجليل والمجامع ونُقل إليه على لسان مَن تجرّأ واقترب منه وأحضر له حاجاته، (وعلى ما يبدو أنّ الذين نقلوا إليه أخبار يسوع وكلماته كانوا سبّاقين بإيمانهم فحذَوا حذو المسيح باقترابهم منه)، اجتُذب بفعل هذا الكلام صوب المسيح

6 Jean-Luc ROJAS, Journée des Malades, 2 mars 2008, Exégèse de Marc 1, 40-45.

والتجأ إليه بالرغم من رفض الناس له، وابتعاد عائلته الخائفة من العدوى عنه. أمّا هو فقد برهن عن إيمانٍ بالله جعله يأتي ويجثو متوسّلاً: «إن شئت فأنت قادر أن تطهّرني» (آ ٤٠)؛ وهذا اعترافٌ جذريّ بالسلطان الممنوح من الله إلى يسوع إذ لم يشترط الأبرص «إن كنتُ استحقّ»، بل عزا الأمر إلى مشيئة يسوع وحدها، ممّا يعني أنّ ثقة المتوسّل لن تتزعزع بقدرة المسيح حتّى ولو لم ينل الشفاء.

بعد هذه العبارة، تتبع الآية «فأشفق عليه يسوع، ومدّ يده فلمسه» (آ ٤١)؛ إذًا هذا المستوى من التوسّل، والاستسلام، والاعتراف المطلق الذي برهن عنه الأبرص حرّك قلب يسوع، فتحنّن عليه، وأشفق عليه وعلى جسده تحديدًا لأنّه كان ضعيفًا، أمّا إيمانه فكان قويًّا استرعى انتباه المسيح ولفت نظره و«حرّك أحشاءه»، ثمّ مدّ يدَه فلمسه. ماذا تعني هذه اللّمسة؟ هذه الحركة تمتدّ إلى اللحظة الأولى من مرض الأبرص وحتّى لقائه بالمسيح، وهي الفترة التي حُرم فيها من كلّ لمسة يد، ومن كلّ معانقة إذ لم يجسُر إنسان على الاقتراب منه. كان المسيح قادرًا أن يشفيَه بكلمة رضى، ولكنّه أبى إلاّ أن يلمسه لينتشله أوّلاً من عزلته، فلم تكن حركته لمسة شفاء، بل لمسة تعزية، وفي الحال شُفي (آ ٤٢).

فلِمَ أنذره المسيح بأنّ لا يخبر أحدًا (آ ٤٤أ)؟ هل كان ذلك كفيلاً بأن يحميَه من أن يشكّكه الناس بإيمانه، وأن يلطّخوا نفسيّته بتحاليلهم؟ أو هل كان مقصودًا لمنحه الوقت الكافي ليتأمّل بالحدث ويعمّق فهمه، فلا يكون انبهاره بالشفاء العجائبيّ، بل بالكلام الذي سمعه من يسوع؟

ثمّ أرسله ليستحضر شهادةً كهنوتيّة بالشفاء (آ ٤٤ب) لكي يستردّ هويّته الاجتماعيّة، ويستردّه أهل بيته، ويقدّم عن طهره ما أمر به موسى. وهذه علامةٌ بارزة بأنّ المسيح لم يأتِ ليزعزع الأوضاع والأعراف الاجتماعيّة، التي ما يزال كثيرٌ منها منتشرًا في أغلبية منطقة الشرق، ولا سيّما ترقّب الشعب والعشيرة لقرار رئيس العشيرة دون الجرأة بتخطّيه. إذًا احترامًا لهذا الواقع الاجتماعيّ، ولإيمان الناس بحكم الكاهن، أرسل المسيح الأبرص إلى الكاهن وخضّع عمله للنفوس وللقناعات التي هي محكومة بها؛ فبالرغم من كونه بريئًا من كلّ ما يختصّ بالناس، لم يواجههم، ولم يسلب قرارهم بل أفسح المجال أمام حرّيّتهم، ولذلك قال: إذهب إلى الكاهن.

أمّا تتمّة الرواية فهي تفاجئنا بموقف الأبرص الذي عصا أمر يسوع بالسكوت وانصرف

ينادي بأعلى صوته ويذيع الخبر (آ ٤٥)، فماذا عن هذا الموقف «المتمرّد» ظاهريًّا؟ إنّ هذا يردّنا إلى كلمة εμβριμησάμενος أي «انتهره» (آ ٤٣) وما تحمله من طاقة من المشاعر، وهذه اللهجة استعملها يسوع أيضًا مع الممسوسين فكان ينتهر الأرواح الشرّيرة؛ فماذا انتهر الربّ في الأبرص؟ إنّ الشرَّ الذي انتهره هو الخوف الذي كان متملّكًا بالأبرص بسبب رفض الناس له، حرّره من شرّه، فانطلق يصرخ للملأ لأنّ روح الخوف فيه قد مات بلهجة يسوع المنتهِرة، وامتلأ ثقةً بشهادته وبأنّ أحدًا لن ينتزع منه شفاءه أو إيمانه؛ لم يخالف كلام المسيح ولم يتمرّد على توصيته، بل موقفه علامة على أنّه تخلّص من خوفه. كانت رغبة يسوع شديدة بإبقاء الأمر سرًّا لكي لا يُجبر الناس على الإيمان به بسبب انبهارهم، بل ليبقى إيمانهم نابعًا منهم، غير أنّه بطبيعته لا يمنح شفاءات متجزّئة، بل أغدق على الأبرص شفاءً كاملاً فعزّاه أوّلاً في عزلته، ثمّ شفى برصه، وأخيرًا انتهر خوفه فحرّره بكلّيّته، ولو كان ذلك على حساب مخطّطه. لذا في نهاية الخبر، أوصلنا مرقس إلى نتيجة إذاعة الأبرص لخبر الشفاء: لقد انتشر صيت يسوع إلى درجة منعته من الدخول علانيّة إلى المدن، فأضحت سُخرية الحال بتبادل للأدوار بين يسوع والأبرص؛ فعاد الأبرص ودخل في اتّصال مع الجماعة بينما أُجبر يسوع على البقاء في الأماكن المقفرة، ولكنّ الناس في كلّ الأحوال ظلّوا يأتون إليه كما أتاه الأبرص في البداية.

المراجع

BROOKS James A., *Mysterious Revelation: An Examination of the Philosophy of St. Mark's Gospel*. Ithaca: Cornell University, 1963.

FRANCE Richard Thomas, The Gospel of Mark: A Commentary on the Greek Text, *The New International Greek Testament Commentary*. Grand Rapids: Eerdmans, 2002.

RAISANEN Heikki, "The Messianic Secret in Mark's Gospel", p.132-40 in the *Messianic Secret*, Issues in Religion and Theology 1. Edited by Christopher TUCKETT: Philadelphia: Fortress, 1983.

ROJAS Jean-Luc, Journée des Malades, 2 mars 2008, Exégèse de Marc 1, 40-45.

WREDE William, *the Messianic Secret in Mark*, London: James CLARKE, 1971.